دولوز: في الفلسفة السياسية ونقد الرأسمالية

د. حموم لخضر،شعبة الفلسفة، جامعة مستغانم

تشير الدراسات إلى أن أحداث مايو 1968 باريس (ثورة الطلاب) كانت ضد الجمود الذي طبع الأنظمة الاجتماعية وحتى الفكرية والتربوية بما فيها البرامج التعليمية، و كانت ضد قيم الرأسمالية والسلطة الليبرالية القائمة على الانضباط والمراقبة وقيم الاستهلاك والسلع، التي رغم ما تدعيه من التحرر فقد أبانت عن فاشية لا تقل عن وحشية النظام الشيوعي. لذا استثمر دولوز وغيتاري في كتابهما (ضد أوديب) البعد الثوري لأحداث مايو 68 من خلال نقد صارم للأوضاع السائدة التي بينت فشل الماركسية والتحليل النفسي و البنيوية وجميع الفلسفات الأخرى، في فهم ما آلت إليه أوروبا التنوير بعد الحرب العالمية، لذلك فكتاب (ضد أوديب)، هو كتاب أخلاقي كما يرى فوكو، جاء من أجل قلب الفرويدية من خلال تحليل الرغبة وعلاقتها بالواقع وبالإنتاج (الآلة الرأسمالية) وكيف تعمل الرغبة هنا وهناك في النسيج الاجتماعي كله، أي كيف تدمج الرغبة في الفكر وفي الخطاب والممارسة .

إن ضد أوديب حسب فوكو هو "مدخل للحياة غير الفاشية... ما الذي نفعله كي لا نصبح فاشيين حتى عندما نعتقد أننا مناضلون ثوريون ؟.كيف نخلص خطابنا وأفعالنا وقلوبنا ولذواتنا من الفاشية ؟، إن دولوز وغوتاري يترصدان أدق آثار الفاشية في الجسد، بل كل أشكالها، ابتداء من تلك الأشكال الهائلة التي تحيط بنا وتسحقنا بما فيها الأشكال الدقيقة التي تصنع الاستبداد المرير في حياتنا اليومية "[1].

1- في نقد النظام الرأسمالي

يؤكد دولوز على تحليل الفصام (Schizophrénie) ضد التحليل النفسي والعقدة الاوديبية، حيث يعمل التحليل الفصامي كنظرية في الرغبة واشتغالها داخل اللاشعور، كطاقة عظيمة، ثورية، وبالتالي تنسحب على الأفراد والمجتمع والدولة، فالتحليل الفصامي هو ضد كل نسق، ضد القوالب الجاهزة، والمفروضة،ذلك " أن تحليل علاقة الرغبة بالواقع وبالآلة الرأسمالية لا يهتم بسبب الأشياء بقدر ما يهمه كيفيتها، كيف ندمج الرغبة في الفكر وفي الخطاب

والممارسة؟ كيف يمكن للرغبة أن تبذل جهودها في دائرة السياسي وأن تتكثف في صيرورة قلب النظام القائم "[2]. لقد تحالف التحليل النفسي مع السلطة الرأسمالية كتحالف الكاهن،المشرع مع الطاغية، وتواطأ مع النظام القائم، لقد كان بمثابة مؤسسة تسهر على قمع وخصي الطاقات والهذيانات، لمنع تدفق الرغبة في الحقل الاجتماعي، كأنه يقول دع المجتمع يعمل، أما الرغبة فنتكفل بها نحن على أريكتنا الوثيرة، لكن الرغبة، حسب دولوز، بتدفقها ستهذي ليس حول كراهية الأب وعشق الأم، وإنما حول المال والسلطة والأعراق والشعوب،كخطوط هروب وانفلات تمكن المجتمع من فك أسره من قيود الرأسمالية، "هكذا تكون الرغبة هي اللغم الكامن في قلب الرأسمالية وتكون الشيزوفرينيا وسيلة تفجير هذا اللغم"[3] سيكون هذا في شكل هذيانات انفصامية، تتكلم عن الحلم واللعب والفن، تشوش على النظام الرأسمالي،و لن يستطيع التحليل النفسي التعامل معها.

لقد فصل النظام الرأسمالي الرغبة عن المجتمع، والثورة عن رغبة الناس، كما عزل اقتصاد الرغبة عن اقتصاد الإنتاج، وعزل اللاشعور عن المصنع، وجعل مجال الرغبة الأسرة ومجال الإنتاج المجتمع، "ما سهل من استعادة تملك التحليل النفسي والنظرية الماركسية وإفراغهما من المعنى.ما يجعل البعض ينظر إلى هذا النظام الرأسمالي بكونه محتوماً إلى الأبد، فهو محايث لوضع الإنسان الاجتماعي كإنسان، وهو جوهر التاريخ ونهايته، تلك الأزمة التي ارتسمت على شكل نهاية"[4].

لذلك فإن الفلسفة لدى دولوز هي ميكروسياسة (Micro-Politique) ضد التصور الشمولي للسلطة المحلي، الهامشي ضد المركزي، هي جذمور (Rhizome) أي الفكر كشبكة يتيح التقاء جميع الخطوط وتحايثها، ضد منطق الشجرة والفكر الباحث عن الأصول، هي كذلك الفكر الأفقي كجغرافيا، الفكر كخرائطية (Cartographie)*، كوسط حيوي محايث، كصيرورة، ضد الفكر العمودي، التراتبي، المتعالي ضد التاريخ بوصفه تقدما مستمرا، فلسفة سياسية للكثرة، للتعدد ضد الواحد والشمولي، الكلي، كهروب، الهروب هو رسم خط إنتاج واقع وإبداع حياة، أو خرائطية حيث تمكن من كشف عوالم جديدة.

مفهوم الجذمور هو ضد البحث عن الجذور أو العودة إلى الأصول والنهايات (نهاية الفلسفة، نهاية التاريخ)، وكذلك يشير إلى التخلص من الولع بالوصول إلى النهايات وتحقيق الغايات (الثمرة – البذرة)، الجذمور يعني الاتصال والغيرية والتعددية، فهو بالتالي يعمل في الفكر كما في السياسة، بشكل أفقي وشبكي ضد النمط التراتبي والهرمي والعمودي .لأنه يحقق المحايثة ضد التعالي، إنه الوسط الذي تنطلق منه الجهود الفردية بشكل متضامن في شكل ثورات جزئية أقلية وليست كلية .يقول دولوز "كونوا مثل الجذمور، بل جذمورات، ولا تكونوا جذورا، إن الشجرة نسب أما الجذمور فهو خلف "[5]،فالجذمور يعمل دائما على إعادة موضعة الطرق المسدودة في الخارطة، وعبر ذلك فتحها على خطوط هروب (Lignes de fuite) ممكنة،لتجنب نشوء بؤر القمع والتسلط،والبيروقراطيات، والسيادة والأنظمة الفاشية.

يُكتب التاريخ، لكنه دائما حسب دولوز من وجهة نظر المقيمين (المتوطنين)، وباسم جهاز الدولة الشمولي التوحيدي، إن ما ينقصنا ليس تاريخا، بل بالعكس نومادولوجيا (Nomadologie علم بداوة أو ترحال)، "هكذا يتوجه فكر دولوز ضد مراكز القوة والجمود والسيطرة المولدة لقمع التحولات والثورة، ولهذا لا يمكن لفكر يضع التحول في مركز اهتمامه الأول إلا أن يكون فكرا متحولا باستمرار، فكرا ترحاليا، تعدديا يتنوع بتنوع الظواهر وتحولها، فكر لا يتكون من وحدات ولكن من أبعاد، ليس فيه موضوعات ولا مواضعات، فكر يعمل بتنويعات عبر كشفه لخطوط الهروب وسيولاتها وتدفقاتها، وللهضبات الأساسية المكونة لتحولات المجتمع، ويقدم الترتيبات لتحليلها والترغيب في نقدها، وإبداع ما يمكن من استثمارها بعيدا عن القسوة والعنف والفاشية.[6]

2- الأدب الانجليزي : الترحال والجذمور

إن الأدب الأمريكي وقبله الأدب الانجليزي، هما اللذان عبرا عن المعنى الجذموري. للفكر، عكس الأدب الفرنسي، فقد عرفا كيفية التحرك بين الأشياء، حيث "نجد لدى الأدب الأمريكي والانجليزي منطق يسعى إلى قلب الأنطولوجيا، ونبذ فكرة الأساس (الهوية)، وإلغاء تقليد النهاية والبداية (التاريخ)، إنه منطق الإضافة، حيث الوسط لا يعني المتوسط، بل هو المكان الذي تتسارع فيه الأشياء .ولا تشير "بين" الأشياء إلى علاقة تبادلية، بل تشير إلى وجهة متعددة وإلى حركة عرضية

تجرف معها هذا وذاك، كنهر بل بداية ولا نهاية " [7].فخلق" امكانية للحياة، يشكل الهدف النهائي للأدب"[8].

فالموضوع الأسمى في الأدب الانجليزي والأمريكي، حسب لورانس (Herbert Lawrence)*، هو الرحيل والهروب واختراق الأفق والدخول في حياة أخرى، أي خطوط الهروب كمغادرة موطنية أي ترحال، الهروب كنشاط ولا شيء أكثر نشاطا من الهروب، إنه نقيض الخيال، إذ هو تهريب لشيء ما وليس تهريبا للآخرين، تهريب النسق وتفجيره على أفاق جديدة أكثر حيوية، يستشهد دولوز، في هذا المضمار، بقول جورج جاكسون (George A. Jackson)** " من الممكن أن أهرب، غير أنني أبحث طوال هروبي عن سلاح"[9]، وذلك عكس الفرنسيين الذين يهربون مثل جميع الناس ولكنهم يعتقدون بأن الهروب هو خروج من العالم سواء كان صوفيا أو فنيا أو تخاذلا وجبنا، أو كهروب من المسؤوليات والالتزامات " فالأدب الفرنسي غني بالبيانات والإيديولوجيا ونظريات الكتابة ومليء كذلك بالنزاعات الشخصية "[10].

لذلك كله، فالهروب من وجهة نظر دولوز هو رسم خط لإنتاج واقع وإبداع حياة، أو خرائطية حيث تمكن من كشف عوالم جديدة. كل شيء في هذا الأدب الأمريكي والانكليزي هو انطلاقة وصيرورة ومرور وقفز وقوة خارقة وعلاقة بالأرض، بالخارج، إنهم يبدعون أرضا جديدة، عبر صيرورة الترحال والتموطن، " فالصيرورة لديهم جغرافيا وليس تاريخا، ذلك أن التاريخ لم يفهم حياة الرحل، لأن لا ماض لهم ولا مستقبل " [11].إنها خطوط جغرافية تتعدى الحدود وتحطمها، ذلك أن الفرنسيين يبالغون في الاهتمام بالجانب الإنساني والتاريخي، بالمستقبل وبالماضي، دون البحث عن خط للصيرورة والاندراج فيها، حتى بالنسبة للثورة لا يفكرون في صيرورتها بل في مستقبلها، " فهم لا يعرفون رسم الخطوط. إنه متعلقون بالجذور والأشجار "[12]، إن انتاجات الأدب الفرنسي، بمثابة نسق يعمل على إيقاف تدفق الخطوط عوض أن يتبعها ويمددها في الحق الاجتماعي.

يسحب دولوز هذه الملاحظة على الملوك، حيث يرى أن الفرنسيين مُلكهم قائم على العائلة والأرض والحيل والخداع، أما الانجليز فهو قائم على حركة المغادرة الموطنية والتيه والترحال حيث يوفرون فرصة لانطلاق سيولات

الرأسمالية، بينما يعمل الفرنسيون على حصرها وضبطها، من خلال جهاز السلطة البرجوازي .لا يتعلق فعل الهروب بالسفر والتحرك وِفْق السفر الفرنسي ذي الطابع التاريخي والتنظيمي والثقافي بل الترحال بالمعنى الجغرافي، فالرّحل كما رأى توينبي (Toynbee Arnold)* ليسوا بمهاجرين ولا بمسافرين، بل هم الذين لا يتحركون ويتشّبثون بالسهب والصحاري، عبر خط هروبي ملازم للمكان الواحد، هم مبتكرون كبار للأسلحة الجديدة؛ أي الآفاق الجديدة، حيث لا تبقى الحياة أمرا شخصيا كما هو الحال في الأدب الفرنسي. وإذا كان "الرحل قد لفتوا اهتمامنا إلى هذا الحد، فذلك لأنهم يشكلون صيرورة وليس مجرد جزء من التاريخ، فالتاريخ يقصيهم لكنهم يعودون للظهور من جديد على نحو مختلف، وضمن أشكال غير منتظرة عبر خطوط الهروب والافلات المتواجدة بالحقل الاجتماعي"[13].

3- خطوط الهروب: خطوط المقاومة

يرى دولوز أن الحقل الاجتماعي مكون من خطوط، فالأفراد والجماعات والأشياء والحيوانات جميعها متكونة من خطوط وذلك ضد التصور الرأسمالي والماركسي القائم على التنظيم الهرمي والتراتبي ووجود الطبقات الاجتماعية، يقول دولوز :"الأشياء والناس عبارة عن خطوط متنوعة جداً، ولا يعرفون بالضبط فوق أي خط من خطوطهم يوجدون، هناك باختصار جغرافيا بأسرها داخل الناس، بخطوط صلبة وأخرى لينة و أخرى هروبية "[(14)].

ونستخلص من كلام دولوز وجود ثلاثة أنواع من الخطوط التي تكون الأفراد والجماعات، هي :

أ-خطوط سميكة صلبة وتقطيعية: تخترق الجسد الاجتماعي وتقطعه إلى كيانات وفق نظام ثنائي قائم ومتعارض (الجنس (رجل، امرأة) أو العمل(طالب، عامل) (جندي، متقاعد)...الخ) .

ب- خطوط لينة ورقيقة، جزئية ومتحركة مرنة: تعمل على رسم التحولات والالتواءات والسقطات التي تعتري الأفراد والجماعات (فقر- غنى، مرض- شفاء، نجاح- فشل)، وهي ليست ذات طبيعة كتلوية مثل الخطوط السابقة بل ذات سيولات جزئية متناهية الصغر وذرية قادرة على رسم صيرورات المستقبل.

ج- خطوط هروب: أو انفلات نحو اتجاهات غير متوقعة وغير مرسومة سلفا، تجرف الأفراد عبر تقطيعاتهم (الخطوط الصلبة) وعبر عتباتهم (الخطوط اللينة)، ورغم بساطتها فهي أكثر تعقيدا وإلتواءًا، إنها خطوط والسرعة والتسارع والانحدارات والانفلات من سجن الثنائيات المتعارضة والمتقابلة والقيم والقوانين الجاهزة كقوالب جامدة وسنن الرأسمالية، لترسم أفقا للتحرر والانعتاق وفق علاقات جديدة .

و تتعرض مختلف هذه الخطوط إلى مخاطر وهاته الأخيرة هي موضوع التحليل الفصامي، نذكر منها :

أ-مخاطر الخط الأول (الصلب) :لا تتعلق مخاطر هذا الخط بعلاقة السلطة بالإفراد فقط بل كذلك بمنظومة القوانين والمنع والإكراه والقسر والانضباط التي تمارسها عليهم، والثنائيات التقطيعية بالآلة المجردة التي تضاعف القوانين وتكثفها، بل حتى بطريقتنا في الإدراك والفعل والإحساس وأنظمة علامتنا، ودولوز يفرق بين الدولة الوطنية في شقيها الرأسمالي الذي لا يعمل سوى كجهاز يوجه وينفذ الآلة المجردة والشق الشمولي الذي يختلط بها، ورغم صلابة هذه القطع الخطية التي تخترقنا وتشعرنا بالأمان لكن في نفس الوقت تجعل منا المخلوقات الأكثر خوفا وكذلك الأكثر شرارة والأكثر مرارة ."حيث لا نستطيع تفجيرها، لأن ذلك يعني تحطيم أنفسنا نظرا لانتماء هذه الخطوط لشروط حياتنا "[15].

ب- مخاطر الخط الثاني: اللين وما يميزه هو أنه يقوم بإنتاج مخاطره ومواجهتها بنفسه إنها "ظاهرة الثقب الأسود"[16]. الذي يسقط فيه الخط اللين وهو ضمن حركة تعدد وتكثف وانسراع ورسم عتبات جديدة، يتجلى ذلك في حركات المهمشين والعنصريين الصغار والفاشيات الصغرى التي تتبع لجهاز الدولة، "فهم لا يبدعون هذه الخطوط ولكنهم يستقرون فوقها وما يلبثون أن يشكلوا خطرا، إنه ما يشكِّل نتاجا اجتماعيا لمجتمع مفرطِ في التنظيم " [17]، نشأ عن مطابقة بين الآلة المجردة والدولة .دولة السلام المطلق والرفاهية التي تشكل خطرا أكبر مما تشكله الحروب الشاملة. فجهاز الدولة تنسيق ينجز آلة مضاعفة التشفير (Surcodage) لمجتمع ما، ليست هذه الآلة هي الدولة، بل هي الآلة المجردة والتي تنظم الملفوظات المهيمنة والأفعال والأفكار السائدة والخطوط المهيمنة على

الخطوط الأخرى، وتضمن تجانسها وقابليتها للتحويل والتغير المختلف، وتنظم حركاتها في كل الاتجاهات، يذكر هنا دولوز الهندسة الإغريقية كآلة مجردة تنظم المجال الاجتماعي في ظل سلطة دولة المدينة، أما اليوم فتتمظهر الآلة المجردة في ظل الدولة الحديثة من خلال الإعلاميات وعلوم الإنسان، لا كعلوم للدولة بل كآلات مجردة في علاقة وطيدة مع الدولة، "يجب أن نميز فوق الخطوط الصلبة تجهيزات السلطة التي تشفر القطع الخطية المتنوعة، والآلة المجردة التي تضاعف شفراتها وتنظم علاقاتها، ثم جهاز الدولة الذي ينجز الآلة"[18].

ج-مخاطر خطوط الهروب: لا يمكن الانفلات من هذه المخاطر السابقة بالالتجاء إلى خطوط الهروب التي هي أيضا لها مخاطرها الخاصة والتي هي ربما الأفظع، ليس لأنها قد تقع في خطر التقطيع والثقب الأسود، بل تتعرض لخطر الاندثار والتحول إلى خطوط زوال وهدم، هذه الأخطار ليست نتيجة الخطين السابقين بل ما تفرزه هي بالذات.و ليست خيالية بل واقعية (انتحار كليست، هولدرلين وجنونه) " إنها انتزاع حدث خالص في وقته وفوق مستواه ...فكل إبداع ينتهي به فنائه الذي ينخره منذ البداية"[19]. هذا ما يفسر حضور تعبير استعارة الحرب باستمرار فوق خطوط الهروب من حيث هي واقعية، إنْ على المستوى الذاتي، الفردي أو الجماعي (ما نجده عند هولدرلين وحقل المعركة، وآلة الحرب ضد جهاز الدولة لدى كليست)، فالحياة والعمل الإبداعي يرتبطان بخط الهروب الذي يجعل منهما قطعا لآلة حرب واحدة،" لقد توقفت الحياة منذ مدة طويلة، في ظل هذه الشروط عن أن تكون شخصية." [20].

4- الآلة الحربية (La Machine de Guerre)

الفلسفة باعتبارها "علم التعدد والفرديات "[21]، تعمل على تتبع ورصد وتحديد هذه الخطوط في مساراتها وتوجهاتها وتعرجاتها وتدفقاتها، من أجل الوقوف عليها وتشخيصها وتقويمها وإعادة توجيهها، فالتحليل الفصامي، وميكرو سياسة والجذمور والخرائطية، هو ما يختص بدراسة هذه الخطوط، إنْ داخل الجماعات أو داخل أفراد، حيث لم تستطع لا الماركسية ولا التحليل النفسي فهم الفاشستية والنازية ولا حب الجماهير لهما والرغبة في الهيمنة والاستغلال اللتين تطبعهما، "الفاشية التي تجعلنا نحب السلطة ونرغب في هذا الشيء نفسه الذي يسيطر علينا ويستغلنا".[22]

لا يعطينا دولوز أجوبة جاهزة ولا وصفة عامة ولا حقيقة يقينية وحلولا مسبقة بل، لقد قطع مع كل المفاهيم الشمولية، بل المفاهيم هي ذاتها أنيات وأحداث، المفاهيم مثل الرغبة أو الآلة أو التنسيق، لا تأخذ قيمتها إلا من خلال متغيراتها.، يقول دولوز " يجب علينا نحن المفكرين أن نفكر في المستحيل مادام هذا المستحيل لا يجد مبرر وجوده إلا من فكرنا...نأمل تأليف كتاب في الحياة وليس في المحاسبة والمحكمة "[23] .فالمسألة تنظيمية وليست إيديولوجية، مسألة الحيوية والصيرورة، فقدان الشهية وليس تضخمها، فقدان الشهية كسيولة وسط سيولات أخرى، حيث يقوم فاقد الشهية بتركيب جسد بدون أعضاء لا يرفض الجسد بل يرفض الجهاز (السلطة، العائلة) للإفلات من التحديد الجهازي للجوع والنقص والساعة الميكانيكية للوجبة، فقدان الشهية سياسة وسياسة جزئية، تفيد الإفلات من قوانين الاستهلاك، حتى لا يكون المرء ذاته موضوعا للاستهلاك، فقدان الشهية يعنى الخيانة والتحول المزدوج، يخون المرء الجوع لأنه يخونه بإخضاعه للجهاز ويخون العائلة لان العائلة تخونه بإخضاعه للوجبة الغذائية العائلية، وسياستها الاستهلاكية، ويخون المادة الغذائية لأنها خائنة بما تحتويه من سموم وبكتيريا .قد يكون هذا الخط الأخير (خط الهروب) موجودا أو قد يبرز لاحقا، أو قد ينفصل عن الخطين السابقين، بل يوجد ربما أناس لا يتوفرون على هذا الخط، ومع ذلك فهو موجود بشكل من الأشكال وبطبيعة مغايرة، وقد يكون هو الخط الأولي والخطين الآخرين هما اللذان ينفصلان عنه، ومع ذلك فإن الخطوط الثلاث متحايثة ومتشابكة فيما بينها، ويشبه دولوز الخطوط التي تخترق نسيج المجتمع بالخطوط اليد المتشابكة لكن تعقيد هذه الخطوط يختلف عن تعقيد خطوط اليد .

كما لا يمكننا أن نفاضل بين هذه الخطوط، كأن هذا هو الأصلح والأخر هو الأسوأ بالطبيعة وبالضرورة[24]. لكن ما هو المعيار الذي يتم على أساسه تقسيم هذه الخطوط وتمايزها عن بعضها البعض ؟. إنه معيار الحياة "وهي تتحول وتتطور والحياة هي دائما أكثر حياة من ذي قبل من حيث لاحقها على سابقها ...إنها القدرة الكاو المطلوبة لإحداث تنسيق معين، إذ يكون الانفتاح الخلاق، وكذلك كثافة التعدد للتجاور الممكن"[25]،و هو ما يسميه دولوز الآلة الحربية (La

Machine de Guerre)[26]، التي تمتلئ حيوية وتبث هنا وهناك وتطلق خط الحياة النابض الذي يحرر المتعدد ويوفر نقاط تلامس وتجاور .

يفرق دولوز بين الآلة المجردة(La Machine Abstraire) والآلة الحربية (La Machine de Guerre)، فالأولى تعود للدولة التي تعمل من خلالها على إحكام سيطرتها على الفرد والمجتمع بواسطة قوانين تسنها، أما الآلة الحربية فهي من اختراع الرحل (Les Nomades)، فهي ضد المنطق الشمولي والكلياني لنظام الدولة وهو ما يفسر الصراع الدائم بينهما.

ذلك أنه إذا كنا حسب دولوز مركبين من خطوط متنوعة ومتشابكة، فإن السلطة تعمل دائما على توطين (territorialisation) هذه الخطوط أو ما يسمى بالالتحاقات الموطنية، أي وضعها في نظام شمولي مقنن يمكنها من مراقبتا وتقييدنا، لكن الرحل هم الذين يستطيعون الخروج من هذا النظام الشمولي عبر عملية الترحيل (Déterritorialisation) وحركات المغادرة الموطنية من خلال إبداع خطوط الهروب. فمثلا المغامرات الاستكشافية الكبرى في التاريخ هي خطوط هروب سواء تمت على الأقدام أو على ظهور الأحصنة، أو على السفن هي خطوط هروب والإبداع، ينبغي حسب دولوز العمل على الهروب، ولكن البحث أثناءه عن سلاح ما،"فالاختلاف في وجهات النظر هو ما يرسم خطوط الهروب "[27].

فخطوط الهروب تقوم على مزج حركات المغادرة الموطنية، أي حركات الترحال وتسارعها ووضعها فوق مستوى الاتساق، أما الخطوط اللينة فتكون فيها المغادرات الموطنية مقيدة بالالتحاقات الموطنية وتخضعها لمنطقها (التوازن والاستقرار والدوران) .أما الخط الصلب الكتلي حيث تتراكم الالتحاقات الموطنية كي تُؤسس لمستوى التنظيم وتصبح آلة مضاعفة السنن.حيث يكون كل تجهيز للسلطة عبارة عن مركب من سنن موطنية، "لا تقترب من موطني فأنا الحاكم هنا "[28].

الآلة الحربية هي ما تعمل على شق مسالك للهروب واختراق الأفق والدخول في حياة أخرى، أي خطوط الهروب كمغادرة موطنية، الهروب كنشاط ولا شيء أكثر نشاطا من الهروب، إنه نقيض الخيال وهو تهريب لشيء ما وليس تهريبا للآخرين، تهريب النسق وتفجيره على أفاق جديدة أكثر حيوية، فالخطوط

ثلاثة تتحول إلى خطوط مهاجرة ورحالة و"تصير هذه الخطوط بمثابة آلة حربية Machine de guerre "[29].

تعمل الآلة الحربية لا وفق نمط شمولي كلّي كتلي (Molaire) بل نمط جزئي نووي ذري (Moléculaire) من أجل وضع سياسة للمُتَرَحِل، ترسم فضاءا أملسا متضامنا مع خطوط الهروب كخطوط الإبداع والابتكار والاكتشاف .فيمكن" لأي حركة، سواء كانت حركة فنية، أم علمية أم (إيديولوجية)، أن تكون آلة حربية وذلك عندما تتولى هذه الحركة رسم مسلك آخر ومد خط هروب مبدع، وإنشاء فضاء أملس، دائم التحول "[(30)] .

الآلة الحربية لها أصل وطبيعة مغايرة لجهاز الدولة تعود إلى الرُعاة الرُحل، ضد المقيمين الأرستقراطيين وهي بذلك مستقلة عن جهاز الدولة، لا يدور نشاطها حول الحرب وإنما إبداع خطوط هروب وإفلات من أسر الثنائيات المتعارضة وأشكال السلطة الشمولية القائمة على التعذيب (القرون الوسطى) والعقاب (عصر النهضة)، والانضباط Discipline (عصر الأنوار)، والمراقبة Contrôle(الحقبة المعاصرة)، حسب دولوز لقد نُظر إلى فوكو دوما على انه الفيلسوف الذي اهتم بالانضباط وآلياته المتعددة من المستشفى والمعزل إلى السجن والمدرسة والثكنات والمصانع، لكن دولوز يرى أن فوكو هو من الأوائل الذين قالوا بأن مجتمع الانضباط هو في طور الاضمحلال، ليحل محله مجتمع المراقبة الذي لا يشتعل كما كان الأمر في السابق على السجن، بل عن طريق المراقبة والتواصل وعن طريق الحواسيب والأنظمة البيومترية والمعلومات الشخصية المخزنة*.كل هذا سيجعل من أشكال الحبس والسجن ومجتمعات الانضباط "و كأنها ماض لذيذ ومريح. لكن قد ظهرت أشكال المقاومة. مثلا القرصنة أو فيروسات الحاسوب والتي عوضت الإضرابات والمظاهرات والاحتجاجات.... لقد كان الإبداع دوما شيئا آخر غير التواصل. إبداع بؤر من اللاتواصل، انقطاعات، خطوط هروب للإفلات من المراقبة"[31].

لهذا يشبه دولوز الوضعية الراهنة سواء في الدولة الرأسمالية أو الوطنية بأنه يمثل ما قبل الدولة وما بعد الدولة في آن واحد .إن النظام العالمي الجديد وما يحمله معه من تغلغل للرأسمالية واكتساح الشركات المتعددة الجنسيات لجميع نواحي المجتمع وحياة الأفراد، هو ما يشكل آلة مجردة

(Machine Abstraire) تعمل على مضاعفة قوانين تدفق رأس المال الصناعي والتكنولوجي وهو ما يجعل وسائل المراقبة والحراسة أكثر مهارة وأكثر انتشارا وفاعلية. هذا يجعل الدولة غير قادرة على تجنب ومواجهة العواقب الاجتماعية للآلة المجردة عن طريق وسائل قديمة أثبتت عجزها مثل رجال النظام والجيوش والبيروقراطية ولا على التجهيزات الاجتماعية، مثل المدرسة والعائلة (مثلا لا يمكن مراقبة المتواصلين على شبكة الانترنيت وما يخططون له من بؤر محلية للمقاومة). تأخذ العواقب الاجتماعية كخطوط هروب عدة مظاهر تمس بالأساس مفهوم المواطنة الذي يصبح فضفاضا، وكذلك التأطير القانوني للجمعيات كالنقابات مثلا، وكذلك تشعب آليات الضغط الاقتصادي، وتبدل طبيعة المطالب الاجتماعية والتي ستركز على الكيف ولن تبقى عند مستوى الكم، سيؤسس كل هذا ما يسميه دولوز الحق في الرغبة، وهذا ما يفسر الشكل الثوري الجديد الذي يتخلى عن الأنماط القديمة ويظهر في قضايا متعلقة بالأقليات الاثنية واللسانية والإقليمية والشبابية، هي أشكال ثورية تضع النظام القائم وأجهزته والنظام الاقتصادي العالمي للآلة وتنسيقات الدول الوطنية موضع التساؤل ذلك لأن الثوريين مرغمون دائما على تغيير أشكال تخطيطهم.

5- الأقلية كمسار للثورة والمقاومة والإبداع

ينتقد دولوز الفلسفة السياسية المنحدرة من عصر الأنوار وفلسفة العقل، بالمقابل يدعو إلى فلسفة سياسية تقوض منطق الثنائيات المتعارضة ومنطق الجدل والسلب بل الإثبات، إثبات كل ما هو مختلف (الهامشي، الأقلية. الذري) فلسفة تعتمد على التعدد، والاختلاف كصيرورة وليس كغاية.بل أن السياسة تشكل مخارجا للفلسفة من خلال وضع الفكر في علاقة مع قوى الخارج، بل ذلك "من أقوى دواعي الفلسفة وما يجعل منها بالضرورة فلسفة سياسية"[32]. إنها سياسة المرتحل، فالأمر لم يعد متعلقا بفن الحكم والتعاقد والعدالة بل أصبحت سياسة المترحل تهتم بما صغر وتضاءل من الأمور وليس بالكتلي.

الخارج يعني أن نفتح الفكر على ما يقصيه من دائرة الكينونة والعقلانية، نفتحه على التجريب حتى لا يبق سجين الماهيات، بل متعلقا بالحدث في تغيره المستمر، التجريب بشكل فلسفي وليس تاريخي، هو الفلسفة في احتكاكها مع

اللافلسفي، فالتفكير هو دوما تجريب. وليس تأويل، هو إبداع ومقاومة، هو انفتاح وتجديد .

و من هنا لا يقترن مفهوم الدولة لديه بمفاهيم العقد والحريات المدنية المشروطة والتشريع القانوني المستمدة من فلسفة الأنوار (روسو، هوبز. سبينوزا)، بل يرى أن هذه المفاهيم هي نتيجة وليست سببا لنشوء الدولة، فلا معنى للحرية يصادرها النظام الرأسمالي باسم منطق الاستهلاك (يصبح الإنسان عبدا لرغباته)، "لذلك فدولوز قد سعى إلى تحرير الرغبة وتحرير الفلسفة كذلك " [33]تحرير الفلسفة من النسق المغلق، ومن التاريخ الميتافزيقي، فالحرية تقتضي التعددية والصيرورة. ففكر الاختلاف وخاصة مع دولوز" يدخل في حوار مع الفلسفة الكلاسيكية، إن ما يأخذه عليها هو إقصاء الآخر والاستحواذ عليه انطولوجيا وسياسيا"[34].

يقطع دولوز مع التصورات السابقة التي تعتبر التاريخ في تطور مستمر، حيث أن التاريخ حسبه ليس هو تاريخ الأحداث العظيمة والكبيرة، بل الأحداث الجزئية الذرية المتناهية في الصغر التي لها امتداد في عمق المجتمع ووسط الجماهير وهو ما يحدث فعليا في التاريخ،" إن الذري، المتناهي في الصغر هو الحدث في صيرورته، والتاريخ هو تاريخ ما يظل يسقط ولا يصل، هو تاريخ السقطات، تاريخ ما يسقط فيه، فالتاريخ لا يفرز شيئا ينشأ منه " [(35)]،فالخروج من التاريخ غير ممكن "إلا عن طريق صيرورات التعددية التي ليست تاريخية، بل جغرافية، حيث تخط وترسم مسارات وتوجهات الفكر"[36].

لذلك يستنتج دولوز أن لا فرق بين النظام الاستبدادي والقانوني ذلك أنهما متضامنان إلى حد كبير في سبيل الغاية النهائية وهي خدمة السيد الآمر الناهي والنموذج الواحد، وما التعارض بينهما سوى في الظاهر، فما نجده من مفاهيم لدى المشرع القانوني مثل (مواثيق، اتفاقيات، عقود) نجد ما يقابلها عند الطاغية (وثاق، حبال، سلاسل) [(37)]. فالقانون يستدعى القبض والاعتقال، والحديث عن الاستبداد يستدعي الميثاق، فكلاهما مندمج في الآخر حيث لا يمكن أن تكون هناك اتفاقيات وعقود ملزمة بدون وثاق وسلاسل والعكس صحيح.هذا ما يؤدي بدولوز إلى القول أن الدولة نشأت مرة واحدة مكتملة ولا معنى للكلام عن تطور الدولة، فالشكل الحديث والقديم للدولة متضايفان

متحايثان في تلازم وثيق، إن الدولة لا تنشأ وفق التراكم التاريخي، بل ظهرت مرة واحدة مكتملة وشمل شكلها جميع أنحاء العالم، حتى في النظام البدائي أو القبلي، كمطلب داخلي كامن في ذاتها، هذا ما يتعارض مع المنطق الميتافيزيقي المتعالي الذي يعارض ويقابل بين الثنائيات (بدائي/ حديث، متخلف /متطور).

ذلك أن الدولة مهما حاولت أن تراقب المجتمع وفق ترسانة من آليات القمع والتسلط والتحكم وعن طريقة سياسة احتواء المعارض والمناهض، سيظل هناك دائما شيء يفلت، ويهرب من الآلة المجردة الحاكمة، يهرب إلى منافذ توفر له الخلق والإبداع لمسارات جديدة. ولما كان النشاط الإنساني لا يتوقف ولا يكل، لأن ما يهرب هو ما يحدث دون غاية محددة، لأنه في ذاته صيرورة مستقبلية، فالتحليل الذري لدى دولوز يهتم بالجزئي، بالمنسي، بالمحلي، ببؤر مقاومة السلطة مهما تناهت في الصغر، يهتم بخطوط الإفلات بدلا عن التناقضات، بالأقليات بدلا عن الطبقات، في مقابل الأغلبية، الأقلية بصفتها أكثر نجاعة وفاعلية على الابتكار والإبداع والتجديد وعلى الانحراف على الخطوط السميكة (جهاز السلطة) فهي مبثوثة في المجتمع ويصعب حصرها وتقييدها، إنها علاقة جذمورية وليست شجرية، علاقة جغرافيا لا علاقة تاريخ، في تجاور وتحايث لا في تراتب وتعالي، الأقلية كمسار للثورة والمقاومة، والإبداع لأننا "لا نفتقر إلى التواصل بل على العكس نتوفر على الكثير منه بل نفتقر إلى الإبداع.نفتقر إلى مقاومة الحاضر"[38].

فنمط الأقلية الذري هو الذي يتعذر أن تقبض عليه الدولة أو أن تتخيل مداه (انقلاب الدولة العباسية على الأموية مثلا في التاريخ الإسلامي، دولة المغول والتتار، والمرابطون في المغرب)، لأن الدولة تعمل وفق الخطوط الغليظة التي لا يمكنها القبض على الخطوط الرقيقة الهاربة .

---

[1] - Foucault Michel, L'Anti-Oedipe, une introduction à la vie non-fasciste, in Magazine littéraire .Deleuze, septembre 1988, n°25, P.51.

[2] -Ibid ,P.50.

[3] - أنور مغيث: سياسات الرغبة، فلسفة دولوز السياسية. مجلة أوراق فلسفية، جماعة أوراق فلسفية، القاهرة، مصر. العدد 02 و03 يناير –يوليو، ص 19.

4- مالك الريماوي: المعرفة والفكر: شاعرية المرور في السديم، دولوز - غيتاري: صيرورة كتابة، مجلة رؤى تربوية، مركز القطان بفلسطين، الموقع الالكتروني:www.qattanfoundation.org/pdf/1716_8.doc

*علم الخرائط أو فن رسم الخرائط هو دراسة وممارسة رسم الخرائط.

[5] - Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux, capitalisme et schizophrénie 2, éditions de Minuit, Paris, 1980., P.36.

[6] - عبد اللطيف اشهيبان: دولوز: الرغبة والمراقبة، مدارات فلسفية العدد2. الجمعية الفلسفية **المغربية** philosophiemaroc.org/madarat.htm، 2010/04/22.

[7] - Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux , Op.cit , P.37.

8 - Gilles Deleuze: Critique et Clinique, éditions de Minuit, Paris ,1993. P15

*كاتب بريطاني (1885-1930)

**مخرج أمركي (1958-200)

9 -Gilles Deleuze ,Claire Parnet: Dialogues, éditions Flammarion, Paris ,1977.P.47.

10 -Ibid,P.61.

11 -Ibid,.P.48-49.

12 -Ibid,P.48.

*تُوينبي (1889-1975) مُؤرِّخ حضارات بريطاني.

13 -Gilles Deleuze: : Pourparlers, 1972-1990, éditions de Minuit, Paris, 2003.P 209.

14 -Gilles Deleuze ,Claire Parnet: Dialogues, Op.cit.P.16-17.

15 -Ibid.P.166

16 - Ibid,.P.167

17 -Ibid,P.168.

18 -Ibid.P.157.

19 - -Ibid,P.169.

20 - Gilles Deleuze: Dialogues ,Op.cit,,P .169.

21 - David Lapoujad :une philosophie ouverte au (dehors).In Magazine Littéraire N° 406.février 2002.P22.

22 - Foucault Michel, L'Anti-Oedipe, une introduction à la vie non-fasciste ,op.Cit, P. 50

23 Gilles Deleuze: Dialogues ,Op.cit. P.173-174.

24 - Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux , Op.cit , P.277.

[25]- فليب مانغ (Philip Meingue): جيل دولوز أو نسق المتعدد، ترجمة عبد العزيز بن عرفة، مركز الإنماء الحضاري، دمشق ،سوريا، ط 1، 2002. ص 102.

26 - Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux , Op.cit. P.520.

27 - Zourabichvili François: Deleuze, une philosophie de l'événement, éditions P.U.F , Paris, 1994. P.107

28 - Gilles Deleuze: Dialogues ,Op.cit.P.156.

29 - Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux, Op.cit. P.520.

30 -Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux. Op.cit P.527

*مثلا نظام (Système d'Information Schengen :(SISالخاص بالاتحاد الأوروبي يجمع ويخزن كل المعلومات الخاصة بطالبي التأشيرة للدخول إلى فضائه، وهي معلومات شخصية قد تستعمل لأغراض أخرى .

31 -Gilles Deleuze: Pourparlers, op.cit, P.237-238.

32 Gilles Deleuze: Pourparlers, op.cit, P. 233.

33 -Catrherine Halpern: Gilles Deleuze ; Le Libertaire, In Revu Sciences Humaines, Hors –série, spécial N° 03,Mai-Juin, 2005,P.73.

[34]- الشيخ محمد: المثقف والسلطة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 1 .1991.ص 73.

35 - Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux. Op.cit P.363.

36 - Antonioli Manola: Géophilosophie de Deleuze et Guattari. Éditions Harmattan. Paris.2003.PP :26-27.

37 - Gilles Deleuze .Félix Guattari: Mille Plateaux. Op.cit P.P.432.-529.

[38]- جيل دولوز. فليكس غوتاري: ما هي الفلسفة. ترجمة مطاع صفدي. فليكس غوتاري: ما هي الفلسفة، ترجمة ومراجعة وتقديم مطاع صفدي وفريق مركز الإنماء القومي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1. 1997.،ص. 120.